حركـــات التجـــديد الدينيـــة
ودورها فى نشر الحضارة الإسلامية
فى غـــرب إفريقيـــا

د . عبد الله عبد الرازق *

لقد بلغ العالم الاسلامى أوج عظمته فى النواحى الثقافية فى القرن الخامس عشر الميـــلادى وكان ســـقوط بغـــداد فى أيدى المغول وامتـــداد سيطرتهم الى الشام قد نقل الثقافة تلقائيا الى مصر المملوكية التى أصبحت زعيمة العالم الاسلامى . هذا فى الوقت الذى سقطت فيه غرناطة فى أيدى المسيحيين بالأندلس وفرار عدد من العلماء الى المغرب الأقصى حيث تركزت الثقافة الاسلامية هناك . ولقـــد امتدت الحضارة الاسلامية الى غـــرب افريقيا وصارت مدينة تمبكت معقلا من معاقل الحضارة العربية فى القرن الخامس عشر الميلادى (١) .

وقطعت الحضارة الاسلامية شوطا كبيرا من التقدم ولكنها توقفت عـــن مسايرة ركب الحضارة الأوربية بعد الكشوف الجغرافية ، وأحس المسلمون بخطورة هذا الموقف وبدأوا يتسلحون بسلاح الغرب ، لكن أوربا كانت تسابق الزمن ، وظهر تفوقها الواضح فى هـــذا المجال واصبح على العالم الاسلامى فى القارة الافريقية أن يواجه هذه الاحداث وتلك التطورات وترتب على ذلـــك أن انقسم المسلمون الى فريقين : فـــريق أحس بما فى الثقافة من خير فسعى الى الاصلاح وأطلق المؤرخون عليهم فريق المجددين وقـــد حاول هذا الفريق تحقيق أمور ثلاثة تتمثل فى محاربة البدع والعادات المخالفة للشريعة الاسلامية ومحاربة الطرق الصوفية التى انحرفت عـــن الطريق السليم ، ثم إصلاح التعليم وتطعيمه بالأفكار الجديدة حتى يتـــلاءم مع الأوضاع الجـــديدة ، وأخيرا الدفاع عن الاســـلام فى وجه التأثيرات الأوربية والهجمات الصليبية وذلك بدراسة أفكار الغرب والرد عليهـــا . وباختصار حاول المجددون تحرير الاسلام من الجمود والقضاء على القيود التى يفرضها الفقهاء على المعرفة . وتمثلت حركات التجديد فى مصر مثـــلا

---

* مدرس بمعهد البحوث والدراسا الإفريقية ـــ جامعة القاهرة .

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ج ١ . القاهرة ١٩٦٣ . ص ١٥ .

فى الشيخ محمد عبـده ومحاولاته تطهير الاسلام مما تسرب اليه من بدع والدفاع عن الاسلام ضـد القيادات الغربية ، ومثـل حركة الفيلسوف محمد إقبـال فى الهند (١) .

وأما الفريق الثانى من المسلمين فقـد رأى أنه لا حـل إلا بالحركات السلفية والعودة الى الاسـلام وماضيه المشرق ، وأن هـذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الاسلام . من هؤلاء جماعة رأت أنه لا صلاح للأحوال الا بحد السيف وإعلان الجهاد لتطهير الاسلام مما أصابه من الضعف . ومن هـذه الحركة الوهابية فى جزيرة العرب والحركة السنوسية فى ليبيـا والحركة الفولانية فى نيجريا وحركة أحمد ولوبو فى منطقة ماسينا وحركة الحاج عمر فى منطقة فوتا تورو وحركة عبد الله بن حسن فى بلاد الصومال .

والحقيقة أن انتشار الاسـلام فى افريقيا جنوب الصحراء يرجع الى جهود رجال الطرق التجديدية من الصوفيين الذين سـاعدوا على انتشار الاسلام وثقافته العربية بين الشعوب الوثنية فى غرب القارة الافريقية (٢) .

ولقد امتدت يد الاصلاح والتجديد الى الطرق الصوفية التى جـددت نفسها وقامت طرق جديدة كان هدفها الأساسى هو نشر الثقافة الاسلامية ثم مقاومة الاستعمار الأوربى .

وسوف نحاول فى هذا العرض أن نحدد الطـرق الصوفية الاسلامية التى انتشرت فى غـرب افريقيـا والدور الذى قامت به فى نشر الاسـلام وحضارته ثم التعرض لأبـرز علماء المسلمين الذين حملـوا على اكتـافهم لواء هذه النهضة الإسلامية . وأخيرا التراث العلمى لأقطاب هذه الحركات التجديدية باللغة العربية .

أولا — الطريقـة القـادرية :

تنسب الطريقة القادرية الى الشيخ العربى عبد القـادر الجيـلانى الذى ولد فى بغـداد عام ٤٧٠ هـ وتوفى عام ٥٦١ هـ . وكان هذا العـالم يسير على نهج الامام الشافعى ومذهبه وكذلك الامام أحمد بن حنبل وكانت فتواه تعرض على العلمـاء ممـا أدى الى ذيوع شهرته بين معاصريه فكثر أتباعه وقصده الناس من كل مكان ولاقت طريقته قبولا حسنا لدى الكثيرين ونجح فى تأسيس رباط له فى بغداد خارج المدينة من التبرعات التى جمعها المريدون وأهل الخير ، وقد نسب اليه أتباعه عدداً من الكرمات (٣) .

---

(2) Gibb : Modern Trends In Islam, Chigtgo, 1945, P. 11.

(٢) عبد الرحمن بدوى : تاريخ التصوف الاسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى ، الكويت ١٩٧٥ ، ص ٢٥ .

(٣) أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامى تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

انتشرت هذه الطريقة العربية فى شمال افريقيا ومن هناك انتقلت الى تاكيدا (TAKEDDA) فى الصحراء حيث آمن بها عدد من قبائل صنهاجة فى هذه المدينة لكن لما انهارت هذه المدينة فى القرن الخامس عشر انتقلت قبائل صنهاجة الى أغاديس ومنها الى الصحراء حيث حملوا الطريقة معهم أينما حلوا وقد آمن بهـا عدد كبير من سكان شمال افريقيا . وفى عام ١٤٠٠ انتشرت الطريقة فى أهير (AHIR) (٢) .

وفى أوائل عام ١٤٠٠ صار سيدى على الكنتى (ALI AL KUNTI) قطبا للطريقة القادرية وعندما انتقلت قبائل الكونتا الى توات (TUAT) حملوا معهم الطريقة القادرية وفى ولاتا تطورت الطريقة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر . وكان شيوخ الكنتى يزورون برنو ويطبقون الطريقة القـادرية .

وفى عام ١٥٥٠ بدأت أفكـار جديدة تؤثر على الطريقة القـادرية فى وسط السودان وغربه وقد جاءت هذه الأفكار الجديدة من الشرق عبر مصر وتركيا وظهر الشيخ الزروق الذى يعد من أهم رجال الطريقة فى أغاديس ومن هـذه المدينة انتقلت أفكار وآراء الشيخ الزروق الى الشيخ سـيدى مختار الكبير الذى ساعد بدوره على نقـل تعاليم الصوفية القـادرية بين جماعات الفولانى فى بلاد الهوسا .

وانتقلت تعاليم الطريقة القادرية أيضا الى منطقة النيجر حيث ساعد الفقيه محمد الانصارى على نشرها فى عام ١٦٠٠ . وفى عام ١٧٢٠ أسس شيوخ الكنتى مدينة مبروك (MABROWK) والتى صارت مركزا لنشر الطريقة القادرية ونشأ بين الكونتا عدد كبير من الفقهاء الذين صارت لهم القيادة الدينية فى القرن الثامن عشر ، وتوسعوا خارج حدودهم القبلية ، وظهر سيدى مختار الكنتى (١٧٩٢—١٨١١) والذى نجح الى جانب تمتعـه بصفات حميدة وثقافة عالية أن يصبح قطبا للطريقة القادرية وصارت لـه مكانة روحية كبيرة بين قبائل الصحراء من اقليم ولاتا فى الغـرب الى أدار ADAR فى الشرق وأيدت قبـائل الطوارق هذه الحركة الدينيـة التى يقودها علماء الكنتى وكانت هذه القبائل تسيطر على ثنية النيجر مما ساعد على انتشار الطريقة بشكل أوسع وأعمق فى غرب افريقيا .

لقد ألف سيدى مختار الكنتى أكثر من ثلاثمائة رسالة عن الاسـلام ودوره فى العالم . وصارت تعاليمه التى حملها تلاميـذه من أبرز العلامات التى ساعدت على انتشـار الاسلام بين الشعوب الزنجيـة فى السودان الغربى والأوسط ، وكان وصول الطريقة القادرية يعنى أن الاسلام لم يعد

(2) Hiskett Mervyn : The Development ot Islam In West africa, P. 244 .

دين جماعة خاصة بل صار دين الغالبية حيث اعتنقه الملوك الوثنيون واستمر الاسلام فى الانتشار على طول الطرق التجارية وصارت مدينة كان كان مركزا أساسيا لنشاط رجال الدين الاسلامى الذين وسعوا انتشاره فى أقصى الجنوب والغرب (١) .

ومن مدينة كان كان امتدت الطريقة تدريجيا حتى السنغال ثم اتجهت الى الجنوب الشرقى حيث منطقة الفولتا وحملها رجال من الديولا . ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل انتشرت الطريقة فى بلاد الهوسا وفى مدينة كانو بشكل خاص حيث حملها الشيخ عبد الله سيكا (SIKA) الذى تلقى تعاليم الصوفية فى فزان وكان من تلاميذ الشيخ شمس الدين النجيب بن محمد أبو شمان والذى كان يقيم بالقرب من تاكيدا (٢) .

وهناك أيضا العالم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى الذى زار كلا من كانو وكاتسينا فى أواخر القرن الخامس عشر ، وكان قد درس فى اهير وتأكيدا قبل حضوره الى بلاد الهوسا وقد شارك فى بث تعاليم القادرية فى المراكز الهوسوية .

وتشير المصادر الى أن تعاليم الصوفية التى آمن بها الشيخ عبدالقادر الجيلانى قد وصلت الى بلاد الهوسا عن طريق الشيخ احمد البدوى فى القرن الثالث عشر والشيخ المصرى ابراهيم الدسوقى فى القرن السابع عشر والشيخ المصرى مرتضى الزيادى فى القرن الثامن عشر ، وأخيرا عن طريق شيخ البربر من أغاريس ويدعى جبريل بن عمر احد أساتذة الشيخ عثمان بن فودى ويشير الشيخ عثمان الى المختار الكنتى فى كتابه السلاسل القادرية ، وأيضا فى كتابه وجوب الهجرة .

ومما لاشك فيه أن عددا كبيرا من علماء الصوفيين العرب قد ظهروا فى بلاد الهوسا وساعدوا على نشر الاسلام وثقافته العربية فى هذه البلاد فهناك الشيخ احمد الرفاعى مؤسس الطريقة الرفاعية والشيخ الغزالى والشيخ محيى الدين بن عربى . ولا ننسى فى هذا المجال جهود الصوفى المشهور الشيخ جلال السيوطى الذى تعاطف بشدة مع رجال الطريقة القادرية .

وفى منتصف القرن التاسع عشر وصلت الطريقة القادرية الى ذروة انتشارها بين خلفاء دولة سوكوتو الذين لعبوا دورا كبيرا فى نشر تعاليم الطريقة بين القبائل الوثنية (٣) .

---

(1) FAGE,D : HISTORY OF AFRICA, LONDON, 1967, PP. 195 - 196.
(2) HISKETT, M : OP . CIT . P 246 .
(٣) عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الاسلام والحضارة العربية فى نيجيريا . القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٠٠ — ٢٢٥ .

أما فى دولة الكانم فقد وصلت الطريقة من شمال افريقيا ، ويقال إن شاعرا معروفا من كانم يدعى ابراهيم بن يعقوب الكانيمى زار بلاط الحاكم يعقوب المنصور فى دولة الموحدين فى القرن الثانى عشر ونقل بعض الأفكار الصوفية التى كانت منتشرة فى المغرب وقد ساعدت هذه الاتصالات على انتشار الأفكار القادرية فى كانم .

وفى الحقيقة فقد شهد القرن السابع عشر تلك السلسلة المتصلة من علماء الصوفية الذين كانوا يتجولون من وادى النيل الى برنوثم الى أهير ومن هناك الى فزان وقد ساعد هذا النشاط الصوفى فى تلك المراكز على نشر الطريقة القادرية وشارك الأزهر بدور واضح فى نشر الأفكار الصوفية بين الوثنيين فى السودان فى ذلك الوقت (١) .

وفى نفس القرن كان حكام برنو يقومون برحلة الحج السنوية وكانوا يمرون على مصر التى كانت فى ذلك الوقت فى قمة الازدهار الصوفى حيث وصل عدد الطرق الصوفية بها فى منتصف القرن الثامن عشر حوالى تسع عشرة طريقة صوفية متميزة وكان لكل منها نشاطها داخل البلاد ، وكان من الصعب على مايات (حكام) برنو أن يتجنبوا الاحتكاك بهذه التيارات الثقافية ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل كان حكام البرنو كلما توسعوا فى أملاك الدولة العثمانية كلما شاهدوا هذا النشاط الصوفى بشكل أوضح.

ولقد ظهر أثر هذا النشاط الصوفى وخاصة الطريقة القادرية فى برنو فى أواخر القرن الثامن عشر حيث نجد أن الشيخ محمد الكانيمى شيخ بورنو قد بنى مدرسة فى نجالا (NGALA) وسعى هو وأسرته لنشر الطريقة القادرية وارتبط انتشار الدين الاسلامى بجهود نشاط هذا الرجل واتباعه وصار يضارع نشاط القادريين فى سوكوتو .

وبفضل جهود هؤلاء الفقهاء امتدت الطريقة القادرية الى كوماسى فى أوائل القرن التاسع عشر وفى منطقة سانجامبيا والسنغال تأثر رجال الجهاد الاسلامى الذين حاربوا ملوك الولوف والسونكى بتلك الأفكار الصوفية التى امتدت على نطاق واسع فى غرب افريقيا .

وخلاصة القول أن علماء المسلمين فى مصر وشمال افريقيا والحجاز لعبوا دورا كبيرا فى نقل الأفكار القادرية الى رجال من غرب القارة وكان لتبنى الفقهاء وعلماء الدين الإسلامى لهذه الأفكار التجديدية الأثر الأكبر فى تنمية الدين الاسلامى مما شابه من بدع ومن عادات افريقية بعيدة كل البعد عن الدين السليم وكان دور العلماء واضحا فى تنقية الأجواء وفى تهيئة الأذهان لقبول التعاليم الصحيحة ، وكان حماسهم الدينى وارتباطهم

---

(2) Hiskett, m : op . cit .p 249 .

بالسلاسل والأوراد القادرية من أكثر العوامل أثرا فى دخول عدد كبير من الوثنيين فى الدين الاسلامى ، ولن نغالى اذا قلنا إن انتشار الدين الإسلامى فى غرب القارة فى القرن التاسع عشر كان واضحا وملحوظا مع حركات التجديد الصوفية . وبفضل جهود علماء المسلمين سواء من مصر أو من شمال افريقيا أمكن التأثير على رجال من غرب القارة تحمسوا لهذه المبادىء وأعلنوا حروب الجهاد التى شهدتها معظم مناطق غرب القارة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وبفضل هذه الجهود المخلصة لأبناء الطريقة القادرية دخل الناس أفواجا فى الدين الاسلامى ووقفت هذه الطرق سدا منيعا وعائقا كبيرا وحاجزا يصعب اجتيازه أمام رجال الارساليات التبشيرية الذين واكبوا بنى جنسهم فى حملات مستمرة أثناء التكالب الأوربى على القارة الافريقية .

ثانيا — الطريقة التيجانية :

أسس هذه الطريقة فى القاهرة الشيخ أحمد التيجانى (١٧٣٧ — ١٨١٥)وكان فى الأساس أحد أعضاء الطريقة الخلواتية ، وقد غادر الشيخ أحمد التيجانى القاهرة الى شمال افريقية حيث أقام أول زاوية له فى قرية أم ماضى التى صارت مقر الطريقة الجديدة ، ومن هذه المكان انتشرت الطريقة رويدا رويدا الى السودان الغربى والسنغال وموريتانيا ، ويرجع الفضل فى انتشار الطريقة الى جهود الشيخ محمد الحافظ بين مختار الحبيب ، وهو أحد أتباع الشيخ أحمد التيجانى وقد عرف الشيخ عثمان بن فودى قطب القادرية فى غرب افريقيا بعض مبادىء التيجانية ولكنه لم يساعد على انتشارها .

ويرجع انتشار الطريقة التيجانية فى بلاد الهوسا الى جهود الحاج عمر الفوتى التكرورى (١٧٩٥ — ١٧٦٤) والذى زار دولة سوكوتو وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج عام ١٨٢٥ وكان الحاج عمر قد اعتنق الطريقة التيجانية بعد أن تلقى وردها من الشيخ عبد الكريم بن أحمد النقيل الفوتاجالونى (١) .

---

(١) ولد الحاج عمر بن سعيد فى قرية حلوار بالقرب من بودور على الحدود السنغالية الموريتانية وذلك فى عام ١٧٩٥ وكان الحاج عمر هو الابن الرابع للشيخ سعيد وهو من الأسر التى قاومت الوثنية فى هذه المنطقة بل وقاومت الاستعمار الأوروبى وقام الحاج عمر برحلة ثقافية طويلة بدأها بالذهاب الى الحج وزار الكثير من المدن الاسلامية وقضى فترة فى دولة سوكوتو وشارك فى حرب الخليفة محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودى . وفى عام ١٨٣٨ انتقل الى منطقة ماسينا ، ثم رحل الى كان وأخيرا عاد الى وطنه فى فوتاتورو واستقر فى دنجورى وبنى حصنا له وبدأ ينشر تعاليم الطريقة التيجانية .

* أنظر : نعيم قداح : حضارة الإسلام وحضارة أوربا فى أفريقيا الغربية

وحاول الشيخ عمر نشر تعاليم الطريقة الجديدة بين علماء سوكوتو خلال أول زيارة له لكنه قضى فترة أطول بعد عودته من الحج تعلم خلالها الكثير عن الطريقة وبدأ فى وضع مسودة كتابه « الرماح » حيث ضمنه تفاصيل مبادىء التيجانية كما درسها ، وقد لاحظ خلال هذه الزيارة الثانية لسوكوتو أن القادرية قد استقرت هناك ، ووجد أن سكان سوكوتو غير متقبلين لأية أفكار جديدة لكنه حظى بصداقة الخليفة محمد بلو الذى ألف كتاب «رفع الاشتباه» ، وفيه أوضح مدى معلوماته عن الحاج عمر واقتبس محمد بلو الكثير من مصادر التيجانية وكان اهتمام الخليفة محمد بلو فى هذا الكتاب هو مسألة الولاية ومعناها ووظيفتها وشرح هذا قائلا بأن المؤمن يجب أن يكون على صلة بالله وأن هذا الارتباط يمكن أن يتحقق من خلال ارتباط الانسان بالولى لأن الأولياء هم نواب الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالى فهم الوسطاء عند الله ، وهذا بالطبع يعد جزءا من مبدأ الانسان الكامل الذى تعرفه القادرية .

وشرح محمد بلو فى كتابه رفع الاشتباه إعجابه بالشيخ أحمد التيجانى وتعاطفه مع أفكار التيجانية ، لدرجة أن عددا من معاصريه اتهموه بالتخلى عن الطريقة القادرية وتأييده للتيجانية ، وأورد الحاج عمر ذلك الرأى فى كتابه « الرماح » ولكن الحاج عمر فشل فى تقديم الدليل على ذلك ، ولقد أشار الحاج سعيد أستاذ محمد بلو بأنه مات قادريا لكنه كان مخلصا للتيجانية (١) .

والسؤال الآن : كيف انتشرت الطريقة التيجانية فى غرب أفريقيا ؟

إن دراسة السلاسل التيجانية فى بلاد الهوسا توضح بأنه اذا كان الحاج عمر هو أول من أدخل الطريقة فى المنطقة إلا أنه لم يكن الداعى الوحيد لها ويرى كثيرون أن شيخ المرابطين مولد فال (MAWLUD FAL) هو أبرز الذين أدخلوا الطريقة ولم يذكروا الحاج عمر مطلقا وهناك من يرى أن انتشار الطريقة إنما يعود الى علماء فاس ومكة ولم يشيروا أيضا الى الحاج عمر ومن المحتمل أن تكون الطريقة قد انتشرت فى بلاد الهوسا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وانتشرت الطريقة فى موريتانيا بفضل جهود الشيخ محمد الحافظ ، كما انتشرت الطريقة فى سانجامبيا بفضل الشيخ الموريتانى مولد فال الذى نقلها الى الشيخ عبد الكريم بن أحمد النقيل الفوتاجالونى والذى نقلها بدوره الى الحاج عمر الفوتى قبل قيامه بأداء فريضة الحج ، لكن الطريقة وجدت حماسا أكبر وانتشارا أوسع وإقبالا أعظم من خلال حملات الجهاد التى

(1) Hiskett, m : op. cit. p. 254 .

بدأها الحاج عمر قبل عام ١٨٥١ وهى السنة التى انتقل فيها الى دنجوراى (DINGUIRAY)

وانشرت الطريقة أيضا فى سانجامبيا بعد وفاة الحاج عمر بفضل عدد من شيوخ موريتانيا مثل الشيخ عبد الله الانياس والشيخ مالك سى ، ثم ساعد الحاج محمد الأمين على نشرها بين قبائل السونكى كما شقت الطريقة التيجانية مجالها ببطء شديد بين جماعات القادرية هناك وكان الحاج عمر على اتصال بشيوخ الصناهجة قبل أن يقوم برحلة الحج عام ١٨٢٥ ونجح فى كسب عدد من الأعوان اليه وضمهم الى الطريقة التيجانية.

ورغم كل هذه الجهود المخلصة لنشر الطريقة التيجانية فى غرب افريقية فان الانتشار الأكبر لها حدث بعد عام ١٨٩٠ وبعد سقوط السلطان أحمد شيخو حيث انتشر زعماء الطريقة فى التوسع شرقا فى بلاد الهوسا والى الجنوب الشرقى حيث بلاد الاشانتى وفى عام ١٨٩٩ كانت هناك ثلاثة منافذ تنقل الطريقة الى إقليم الفولتا أحدهما من بلاد الهوسا وخصوصا من كانوا وكاتسينا والثانى من مدينة جنى عن طريق كونج والثالث من مكة المكرمة والمدينة المنورة مباشرة عن طريق الحجاج العائدين من هناك .

وصلت الطريقة أيضا الى جنوب ساحل الذهب — غانا اليوم — فى أواخر القرن التاسع عشر بفضل جهود تجار الهوسا فى نشر الطريقة وبسبب السياسة البريطانية التى جندت الهوسا فى البوليس والجيش وكان منهم بعض التيجانيين الذين استقروا فى إقليم زونجوس (ZONGOS) بعد انتهاء الخدمة العسكرية ونجح هؤلاء فى نشر مبادىء الطريقة التيجانية فى هذه المجتمعات الناطقة بلغة الهوسا .

أما فى برنو فقد انتشرت الطريقة التيجانية بسبب زيارة الحاج عمر للمنطقة بعد عودته من رحلة الحج ولقيت الطريقة قبولا بين الماايات المعزولين من السيفاوا والذين اتخذوا من ورد القادرية وسيلة للتعبير عن معارضتهم للأسرة الحاكمة من القادريين وللشيخ الأمين وخلفائه ورغم أن نشاط الحاج عمر قد ساعد على انتشار الاسلام بين الوثنيين فى المناطق التى وصلت جيوشه اليها فان الطريقة لم تكن ناجحة مثل الطريقة القادرية (١) .

وفى عام ١٩٠٠ انتشرت التيجانية على نطاق واسع عبر السودان الغربى والأوسط من السنغال الى برنو وصارت المصدر الثانى لولاء المسلمين بعد القادرية فى غرب افريقيا ككل ، ولا تزال القادرية والتيجانية

(1) Fag e, J.d. : op. cit, p. 212 .

أهـم طريقتين صوفيتين فى غـرب القارة لكن هناك طرقا أخرى مثـل السنوسية والوهابية .

ثالثـا ــ الطريقة السنوسية فى غرب القـارة :

أسس هذه الطريقة محمد بن على السنوسى (المتوفى عام ١٨٥٩) وكان ظهورها مثل التيجانية والقادرية نتيجة الإحياء الصوفى فى الأزهـر فى أواخر القرن الثامن عشر وكانت هذه الحركة تهدف الى الرجوع بالاسلام الى مصادره الأولى والاعتماد على الكتاب والسنة مع بقـاء باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه وكذلك العمل على توحيد الأمم الاسلامية (١) .

. واتسمت السنوسية كغيرها من حركات التجـديد الاسلامى بتحالف زعماء الحركة مع الأمراء والحكام فى مناطق قيامها ورغم أن السنوسية قد اتسمت بطابع البادية إلا أن أهدافها لم تقتصر على اصلاح البـدو ، بل إنها تجاوزت ذلك وتطلعت الى تحرير الاسلام من سيطرة الكفار (٢) .

ولم تكن الحركة السنوسية فى حد ذاتها حركة سلفية مرضـية بل إنهـا كانت رد فعل مباشر ضد الخطر الأوربى ولم تكن الدعوة قاصرة على العبادة والتصوف بل شجعت على العمل والانتاج وكان الاخوان فى الزاوية يقومون بالعمل المتواصل (٣) .

وباختصار كانت الحركة السنوسية حركة اسلامية وجمعية مذهبيـة وطريقة صوفية روحية تسعى الى تطهير النفوس هذا الى جانب أنها حركة فكرية تهدف الى توضيح المبادىء على أساس منطقى وحاولت الابتعاد عن انحرافات الطرق الأخرى .

واعتمدت الحركة السنوسية على الاجتهاد وحرية كل مسلم فى تبنى أى من المذاهب السنية الأربعة ، وعارضت الحركة مبدأ التقليد أى القبول لأى فكر بدون تساؤل لتقاليـد السلف وكان الهـدف الرئيسى للسنوسية إحداث الاتحاد بين دار الاسلام ، وكان محمد بن على السنوسى نفسه رجل سـلام ويعارض العنف وكان يعلم أتباعه عـدم الاعتداء على أحد إلا اذا هاجمـه ، وكان يرغب فى نشر طريقتـه فى الجزائر لكن قوات الاحتـلال الفرنسى منعته من ذلك وانتقلت الطريقة الى برقة أى فى الجزء الشرقى

---

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيـا ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٣٤ .
(٢) أحمد صدقى الدجانى : الحركة السنوسية نشأتها وتطورها ونموها فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٩ .
(٣) أحمـد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامى فى العـالم العربى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤١ .

من شمال افريقيا حيث وضع الأتباع أسس دعوتهم فى الصحراء وكانت طريقتهم إنشاء الزاوية التى يبدأ منها نشر الاسلام ومبادىء الدعوة السنوسية .

ومن برقة انتشرت السنوسية ببطء جنوبا عن طريق زويلا (ZAWRLA) وكاور (KAWAR) وكرفا (KURFA) وبرجو (BORGO) حتى استقرت فى كانم وبرنو ، ووادای ومن هناك انتشرت شرقا وغربا فى الإقليم شبه الصحراوى واستقرت فى كانو عام ١٨٩٠ (١) .

وبعد وفاة السنوسى عام ١٨٥٩ تولى السيد المهدى السنوسى الذى اتخذ من واحة الجغبوب مقرا للحركة حتى عام ١٨٩٥ ثم انتقل الى الكفرة ونمت الحركة نموا ملحوظا فى عهد المهدى ، وحصر المهدى نشاطه فى الصحراء واهتم بالبناء الداخلى للحركة ، وسار على النهج الذى رسمه له والده وهو العمل على نشر الدعوة بين قبائل الصحراء .

ونجحت الحركة السنوسية فى اصلاح المجتمع البدوى وحولت الأفراد الى العمل والانتاج وبثت فى نفوسهم عقيدة دينية خالصة وجهتهم الى طريق البناء وتشكل فى الصحراء مجتمع متعاون متكافل تسوده روح الاخوة والسلام ونجحت الحركة أيضا فى نشر الاسلام بين القبائل الوثنية ، ومدت يد العون لها واتبعت أحسن الأساليب الإنسانية فى الأخذ بيد تلك الشعوب البدائية وكانت السنوسية حركة سلمية جددت فى الاسلام وفتحت باب الاجتهاد وخلصت الطريقة الصوفية من الشوائب التى علقت بها وعملت على نشر الشريعة الاسلامية لأن المريد السنوسى كان يلقن الطريقة لأتباعه وكان يلح عليهم بالتمسك بأحكامها .

ونجحت الحركة أيضا فى إقامة سلطة تمسك بزمام جميع الأمور وتشرف على الفرد والمجتمع وتعمل على تلقين الأوراد للأتباع ولقد اتبع الناس هذه السلطة راضين لأنها نبعت من إيمانهم بها . والحقيقة أن الدعوة السنوسية كانت دعوة دينية خالصة وكان قوامها الايمان الصحيح والعمل الصالح والانتاج المنظم والتنظيم السياسى (٢) .

رابعا — الطريقة المريدية فى السنغال :

تأسست هذه الطريقة فى عام ١٨٨٦ على يد الشيخ السنغالى أحمد بمبا الذى تعلم مبادىء القادرية على أيدى الشيخ الموريتانى سيديا وكانت طريقة أحمد بمبا فى البداية فرعا من القادرية لكنه طورها بعد ذلك

---

(1) Hiskett, m, : op. cit . p. 257 .

(٢) نقولا زيادة : ليبيا فى العصور الحديثة ، ص ٧٢ .

وجعل لهـا وردا خاصـا وصارت لهـا مبادؤها التى تأثرت بالتيجانيـة وبسبب هذا التأثر من الطريقين ظهرت الطريقة الجديدة بين أتباع الشيخ احمد بمبـا وقد سموا أنفسهم « المريدين » وعلى هـذا صار اصطلاح المريدية يستخدم لوصف أصحاب الطريقة الجديدة (١) .

وكان هذا المظهر المميز لهذه الحركة هو التركيـز حول واجب المريد نحو الشيخ حيث لابد على المريد أن يتبع أحد المشايخ لكى يضمن التطهر والنقاء الروحى ويصبح مسلما حقا .

وانتشرت حركة أحمـد بمبـا بين جماعات الولوف الذين كـانوا فى مرحلة التطور الاقتصادى والبعد عـن المجتمع التقليدى وفى وقت كـانت بلادهم تتعرض للاحتلال الفرنسى كل هذا جعل الشعب الولوفى ينظر الى أحمد بمبـا باعتباره المنقـذ لهم من هذا الاستعمار الفرنسى ولذا صـار الشيخ أحمد بمبـا فى نظر أعوانه ومريديه الدعامة التى يرتكز عليها البناء الجديد والمخلص لهم من استعمار أجنبى ومن حكام تقليديين عجزوا عـن حمايتهم من الاستعمار الأوربى .

وعلى عكس الطرق الصوفية الأخرى لقيت هذه الطريقة تأييـدا من المناطق الريفية يفوق تأييد سكان الحضر والمدن ذلك لأن الطريقة كـانت أكثر تسامحا فى الملاءمة بين التقاليد الاسلامية والعادات المحلية الوطنية ، وكان شعار الطريقة المريدية اتخاذ الزراعة عملا أساسيا واعتبارها أشرف الأعمال ولذا تأسست الطريقة على أساس جماعى تعاونى لكل فرد منهم نصيب معين فى العمل يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين (١) .

واكتسب المريدون شهرة فى الوقوف فى وجه الفرنسيين وكان الشيخ احمد بمبـا طموحا وفى نيتـه الاطاحة بالفرنسيين وبنـاء دولة إسـلامية لكنه أحس بالعجز ، وأدرك أنه يصعب تحقيق هذه الأمانى ولهذا جنح الى العودة للحياة الدينية الخالصة وتعاون مع الفرنسيين فى أضيق الحـدود ولكنه لم يكن مخلصا لهم مما جعلهم يفقدون الثقة فيه وأخذوا يراقبونه بحذر ونفى من السنغال مرتين ، وسمحت له السلطات الفرنسية بالعودة بعد كل مرة لأنهم كانوا يدركون أهمية دور المريدين فى الاقتصاد السنغالى .

خامسا ـ الدعوة الوهابية فى غرب أفريقيـا :

كانت الدعـوة الوهابية أولى الحركات الاصلاحية التجـديدية التى ظهرت فى الدولة الاسلامية وتنسب هـذه الحركة الى الشيخ محمـد بن عبد الوهاب الذى ظهر فى شبه الجزيرة العربية فى عام ١٧٠٣ وقامت هذه

---

(1) Hiskett, m. : op. cit. p. 288 .

(٢) عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا ، ص ١١٣ .

الدعوة على مبدأ التوحيد الذى هو حق الله على العبيد أى الدعوة الى الله وحده لا شريك له واعتمدت أيضا على الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح وبعبارة أخرى لا مصدر إلا القرآن ولا حكم إلا حكم السنة المطهرة.

وكان أهم ما تميزت به هذ الحركة أنها ظهرت فى إقليم نجد ، أى فى تلك المنطقة الصحراوية التى انبثق منها نور الاسلام وتأثر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمذهب الامام أحمد بن حنبل وهو مذهب أكثر تشددا فى الرجوع الى القرآن والسنة وإنكار البدع المستحدثة ورغم الشدة تميزت بها الدعوة إلا أنها لقيت نجاحا عظيما وانتشارا ملحوظا لأنها نادت بالزهد والتقشف والبساطة وهى أمور تناسب حياة البدو كما أنها ظهرت فى فترة كان العالم الاسلامى قد بلغ قدرا من التفكك والانحلال والضعف فوجد فيها الناس المجال الخصب لإحياء مجد الاسلام والمسلمين (١) .

ونجحت الدعوة الوهابية فى هذ فترة الركود التى أصابت العالم العربى وكان نمو الحركة نموذجا لغيرها من الحركات التجديدية فى العالم الاسلامى بوجه عام وفى غرب أفريقيا بوجه خاص ، وكانت الحركة قد امتدت الى غرب افريقيا بفضل جهود الحجاج المسلمين الذين قدموا من هذه الجهات ولقد وجدوا فيها الزاد والتقوى ، وعندما عادوا الى بلادهم سعوا لنشر أفكارها بين أهليهم وبنى عشيرتهم ، فلا غرو أن تجد الوهابية دعاة لها من أبناء غرب افريقيا ، كما ساعدت جماعات الاخوان المسلمين فى مصر على نشر مبادئها فى القارة .

واتسمت الدعوة الوهابية التى وصلت الى مالى وساحل الذهب بالتقاليد الاسلامية والاحتجاج على استغلال البسطاء من الناس بفكرة الأولياء التى نشرتها الطرق الصوفية فى غرب افريقيا . وفى ساحل العاج ومالى حاول الوهابيون الابتعاد عن المسجد الرئيسى للجمعة وأقاموا لهم مسجدا خاصا ليكون الامام واحدا منهم وفى بعض الأحيان كانوا يسيطرون على مسجد الجمعة ويمنعون الأئمة من غير الوهابيين من أداء الصلاة أو إمامة المسلمين كما احتجوا على السلطات الدنيوية لحكام المسلمين . ومما لاشك فيه أن دعاة الوهابية قد لعبوا دورا كبيرا فى الحياة الدينية هناك (١) .

وفى ساحل الذهب لعب دعاة الوهابية دورا أقل أهمية فى المجال السياسى ذلك لأن المسلمين كانوا أقل حظا فى الخواص التعليمية وكانت

---

(١) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى « ١٥١٦ — ١٩٢٢ » ص ٢١٥ .

(٢) لمزيد من الدراسة حول الوهابية أنظر أحمد بن حجر بن محمد آل بوطامى : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الكويت ، ١٩٧٦ م .

مواردهم الاقتصادية محدودة لكن هذا لاينفى أنهم عارضوا الادارة الاستعمارية على قدر طاقاتهم .

ورغم انتشار الحركة الوهابية فى المشرق العربى إلا أنها كانت أقل أثرا فى غرب أفريقيا . ويرجع السبب فى ذلك الى انتشار الحركات الأخرى مثل السنوسية والفولانية . وكانت الدعوة الوهابية قد سلكت طريق الشهرة بينما سلكت السنوسية طريق الرفق واللين ، كما أن الوهابية لم تعترف بالأولياء وكراماتهم وهو ما أقرته الطرق الصوفية الأخرى فى أفريقيا (١) .

وباختصار يمكن القول أن الحركات التجديدية فى العالم العربى قد امتد أثرها الى افريقيا وقامت الطرق الصوفية العربية بنشر تعاليم الدين الاسلامى ، وكان الدور الذى قامت به فى المجال التعليمى لا يقل عن الدور للذى قامت به فى المجال الروحى ذلك لأن هذه الطرق وجدت نفسها أمام شعوب وقبائل لم تدخل الاسلام بعد ومن ثم كان عملها الرئيسى هو نشر العقيدة الاسلامية على نطاق واسع بالاضافة الى أن هذه الطرق وجدت نفسها أمام شعوب عرفت الإسلام بالاسم فقط وكانت البدع قد تفشت بينهم ، الأمر الذى أوحى للشيخ عثمان بن فودى أن يعلن الجهاد ويتصدى للملوك الوثنيين بعد أن صار من أقطاب الطريقة القادرية .

ووحدت الطرق الصوفية والتجديدية نفسها أمام تحد سافر من تلك المجتمعات وكان لابد من نوع من التعليم الدينى العام للقضاء على الجهل ، والانتقال الى نشر قواعد الدين السليم بعد تعلم اللغة العربية ، دكان نشاط الطريقة القادرية فى الدعوة ذا طابع إسلامى يعتمد على الارشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره وبهذه الطريقة برهن دعاة القادرية على الوفاء بواجباتهم تجاه الدين الاسلامى .

ولم يتوقف نشاط حركات التجديد العربية على تلقين الأوراد بل تخطاه الى التعليم واعتباره عملا أساسيا فى دائرة نشاطها ، وصارت الزوايا بمثابة مراكز للذكر والصلاة جنبا الى جنب مع الدراسة والتعليم كما صارت مصدرا للفتوى والتشريع وكانت تعقد منها جلسات القضاء المحلى بالاضافة الى أن الزوايا لعبت دورا هاما فى نشر العقيدة الاسلامية وتخليصها من البدع التى امتزجت بها ، وصارت هذه الزوايا مراكز لاتدريب العسكرى على الرماية والمبارزة وركوب الخيل . وكل الفنون العسكرية

---

(1) Hiskett, m : an Islamic Trtdition of Reform In the western sudan from the 16 th to the 18 th cenuryy bulletin of thie school of orintal studies vol XXV, 3, 1962 p. 592 .

كما نجحت الزوايا فى تعبئة الجيوش ، ولقد رحبت القبائل الوثنية بجماعات القادريين باعتبارهم فقهاء ومعلمين واستطاع السكان المحليون التجاوب مع الأفكار الصوفية ودخل عدد كبير منهم فى دين الله .

وبهذه الطريقة ساهمت الطرق الصوفية بشكل واضح فى نشر التعليم والثقافة الاسلامية باللغة العربية ، وكانت خير مساعد للمدارس القرآنية والمعاهد العلمية فى غرب أفريقيا ومن النادر ان تجد مسئولا أو قائدا فى غرب أفريقيا إلا وينتمى الى إحدى الطرق الصوفية وخاصة الطريقة القادرية التى لقيت القبول بين غالبية علماء وفقهاء غرب أفريقيا.

وسوف نركز على الآثار التى تركتها هذه الطرق التجديدية العربية على الحركات الفكرية فى غرب أفريقيا .

الآثار التى تركتها هذه الطرق التجديدية :

مما لاشك فيه أن زعماء حركات الاصلاح ورجال الطرق الصوفية وخاصة القادرية والتيجانية قد لعبوا دورا كبيرا فى نشر الاسلام والحضارة العربية فى غرب أفريقيا ، ومن يطلع على المكتبات الرئيسية فى غرب أفريقيا يجد حركة علمية كبرى حيث ازدهرت المراكز العلمية والمدارس الدينية التى ارتبطت بعلماء المسلمين العرب فى شمال أفريقيا ، ولقد كتب علماء الحركة الاسلامية مؤلفاتهم باللغة العربية فى شتى الشئون الدينية والادبية والاجتماعية . وكان للحركة الاسلامية التى نهض بها عثمان بن فودى أثرا عظيما فى تقديم أحوال المسلمين فى غرب أفريقيا وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية فى تلك البلاد لأن الحركة لم تكن صوفية فحسب بل إنها كانت مبنية علىحركة علمية اتخذت من اللغة العربية أساسا لها (١) .

فلقد الف الشيخ عثمان بن فودى نحو عشرين كتابا تدور حول أصول الولاية وإحياء السنة وبيان البدع وترغيب العباد والتصوف والجهاد وسوق الصادقين وشفاء العليل والمهدى المنتظر والمسائل المهمة ونصائح الأمة ونور الألباب والهجرة (٢) .

كما الف الشيخ عبد الله بن فودى أخو الشيخ عثمان حوالى ثمانية عشر كتابا منها : الفية الوصول ، وبحر المحيط فى النحو وتزين الورقات ، وتفسير ضياء التأويل، وضياء السياسة ،وضياء الحكام، ومصالح الانسان ، ومفتاح التفسير ، ومفتاح الوصول ونيل المرام . (٣) .

---

(١) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ١١٤ .
(٢) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ، ص ٢٩٢ .
(٣) آدم عبد الله الالورى : الاسلام فى نيجيريا ص ٤١ .

ولم يكن محمد بللو بن عثمان بن فودى اقل انتاجا من أبيه وعمه ، فلقد كان أديبا ورعا له مؤلفات مثل : الإنصاف فى ذكر ما فى مسائل الخلافة من وفاء ، وخلاف وجلاء الصدور عما يحتاج فيها من صدر العذور ، والرباط والحراسة ، وتنبيه الصاحب على أحكام المكاسب ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى . وكان كلما الف كتابا أخرجه الى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف كتاب آخر (١) .

وفى مكتبات كانو وسوكونو وابيدان بنيجيريا مخطوطات عديدة لكثير من المؤلفين الى جانب عبد الله بن فودى والشيخ عثمان ومحمد بللو نجد مخطوطات بالعربية للبدراوى محمد بن عبد الله البرناوى والشيخ جنيد وزير سوكوتو وعبد الله بن محمد بن سالم وعبد القادر بن مصطفى إبن إبنه عثمان بن فودى وعبد الرحمن بن الخطيب محمد السنوسى الخزرجى ومحمد الوالى بن ابراهيم الوالى الفلايى وغيرهم ، ولم تكن هذه المؤلفات قاصرة على غرب افريقيا بل نهل منها الأوربيون واخذوا منها الكثير الى مكتبات دول غرب أوربا حيث نجد فى دار الكتب الوطنية بباريس مخطوطات نيجيرية للشيخ عثمان بن فودى ومنها بيان البدع الشيطانية التى أحدثها الناس من أبواب الملة المحمدية وكتاب حصن الافهام من جيوش الأوهام وإحياء السنة وإخماد البدعة ومسائل ملهمة وسراج الاخوان من أهم ما يحتاج اليه فى هذا الزمان ، وكثير من مؤلفات عبد الله بن فودى وأيضا مؤلفات الحاج عمر الفوتى التكرورى ومن أهمها أجوبة مسائل فتاوى منوعة وعقيدة وهاديات المذنبين الى كيفية الخلاص من حقوق الله عن التوبة وقصائد منوعة ورياح الحزب الرحيم على نحور حزب الرجيم فى واجبات مريدى التيجانية وسيوف السيد المتقدق أهل الله وتذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين وارجوزة فى العقائد (٢) .

وترتب على هذه النهضة الأدبية العربية أن صار الدين الاسلامى أساس النظام السياسى والاجتماعى فى الدولة وتمتع رجال الدين والعلماء بمكانة اجتماعية عالية وتولى أبناء هؤلاء العلماء مناصب التدريس والقضاء نظرا لما كانوا يحظون به من ثقافة إسلامية تفوق بقية طوائف المجتمع وقد اعتمد المجتمع فى غرب أفريقيا على تطور هذه الفئة ثقافيا (٣) .

---

(١) تذكرة النسيان : ص ١٩١ .

(2) Edmond blechiet : Catalogue des monuscits arabes novelles Additions .

(3) Hiskett M, : Material relating to the state of learning Among the fulani before their Jihad, studies, VOL. XIX, 3 , 1957 PP. 550 — 577 .

ولم تكن طبقة رجال الدين والعلماء قاصرة على فئة معينة من السكان بل كانت مفتوحة لكل من تعمق فى الدين وثبت اقدامه على طريق النصح والارشاد والحجة القوية ، وقد ظهر أثر الدين الاسلامى وثقافته العربية فى تكوين المجتمع حيث تمتع العلماء بمكانة اجتماعية مرموقة بوصفهم حماة الدين الذين يعملون فى التدريس والوعظ والارشاد ولقد تأثرت الجماعات الوثنية التى اعتنقت الدين الاسلامى تلقائيا بهذا المزيج الحضارى (١) .

ولقد ارتبطت المدارس فى غرب افريقيا عامة بالنواحى الدينية ومن اول الأمر كانت المدارس ملحقة بالمساجد وكانت بعض المساجد مقارا للعلم ، ومع ازدياد عدد المسلمين وظهور دولة المرابطين فى القرن العاشر الميلادى الحقت المدارس بالرباط وصارت الزوايا الخاصة بالطرق الصوفية مدارس لتعليم الأطفال . واشتهرت بعض المدن بمساجدها والتى صارت منارة يشع منها العلم والمعرفة وصار الدين الاسلامى ثقافة وفكرا فما أن يعتنق الشخص الدين الاسلامى حتى يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة وبهذا التعلم تسمو مكانه الفرد ويرتفع كيانه فى الدولة . وارتبط الدين الاسلامى بالتعليم نظرا لأن انتشار الاسلام استلزم ضرورة تعلم اللغة العربية حتى يمكن فهم القرآن الكريم والفقه والتشريع الاسلامى وقد ساعد هذا على انتشار اللغة العربية حتى أن لغة الهوسا كانت تكتب بألفاظ عربية الى أن جاء الاستعمار الأوربى فاستبدلها بالحروف اللاتينية (٢) .

ولقد ظهرت فى غرب افريقيا فى القرن التاسع عشر معاهد علمية معروفة ومن اكبر هذه المعاهد الدينية معهد الشيخ عثمان الذى لعب دورا كبيرا فى نشر الحضارة العربية فى شمال نيجيريا الى جانب عدد كبير من المعاهد الأخرى مثل معهد الشيخ محمد بن جيدارو بن ليما وهو أول وزير للشيخ عثمان ، ومعهد الشيخ مصطفى صاحب الشيخ وكتابه ، وأيضا معهد الشيخ اسحق ومعهد الشيخ أبى بكر قاضى القضاة (٣) .

ويعد الشيخ عثمان بن فودى أكبر عالم عرفته أفريقيا الغربية ، ولا غرابة أن يلقبه الناس بعربى السودان لجهوده المختلفة فى نشر الثقافة

---

(1) Greenberg J, : the influence of Islon a su - denese religion P. 210.

(٢) محمد مصطفى الشعبى : نيجريا الدولة والمجتمع ص ١٧٨ .

انظر هذه المعاهد بالتفصيل فى على ابو بكر : الثقافة العربية فى نيجيريا فى القرن التاسع عشر ، رسالة دكتوراة منشورة بجامعة القاهرة ١٩٥٧ م .

العربية فى غرب أفريقيا ، إذ أنه بفضل هذه النهضة العلمية والثقافية التى رفع الشيخ عثمان لواءها أن ازدهرت الدراسات العلمية واتصل علماء بلاد التكرور بعلماء مصر والبلدان المجاورة وصار لكل أمير من أمرائها وكل عالم من علمائها مكتبة خاصة تحوى الكتب العربية فى علوم النحو والصرف والفقه والتفسير واعتبر العلماء أن ما كتبه الشيخ عثمان دستورا علميا يجب السير على منهاجه (١) .

ولقد ساعدت الطرق الصوفية تلك الجهود الجبارة التى بذلها الشيخ عثمان فودى وتلاميذه وكان لهذه الطرق دورها فى نشر الاسلام عن طريق التعليم والدعوة الخالصة (٢) .

كل هذه الجهود المخلصة ساهمت فى نشر اللغة العربية وجعلتها لغة رسمية فى أجزاء كثيرة من بلدان غرب أفريقيا ونقرأ فى مؤلفات الشيخ عثمان وتلاميذه صفحات من الشعر العربى والنثر التى ترددت على ألسنة الناس فى مجتمعات غرب أفريقيا بصفة عامة وفى دولة سوكوتو الفولانية بصفة خاصة (٣) .

وفى الختام نستعرض أهم الآثار التى ترتبت على الحركات الاصلاحية والطرق الصوفية فى غرب أفريقيا .

أولا : نجحت الحركات الاصلاحية فى القضاء على تسلط الحكام المحليين وأقامت نظما جديدة تختلف عن النظم السالفة ونجحت أيضا فى غرس أسس العقيدة الاسلامية الصحيحة بعد أن خلصتها مما شابها من بدع وتقاليد وثنية لاتمت للدين بصلة .

ثانيا : أدى الجهاد الاسلامى لعلماء العرب والمسلمين وعلماء شمال أفريقيا الى نشر الثقافة العربية ، وصار القرن التاسع عشر عصر ازدهار تلك الثقافة العربية والاسلامية ، ولعل الفضل فى ذلك إنما يعود الى المؤلفات الضخمة للعلماء المسلمين، وقد ساعدت هذه المؤلفات على ازدهار الحضارة العربية وانتشار لغة القرآن التى صارت ينبوعا للثقافة والفكر ، وصارت تضارع اللغات المحلية فى تلك المناطق ، وساعد على ازدهارها أن عادت المناصب العربية تأخذ مكانها من جديد فى المجتمع الاسلامى ، وصار هناك الوزير والقاضى والوالى والمحتسب ، وأنشئت الدواوين ودور القضاء التى استخدمت اللغة العربية فى سجلاتها ، وبهذا تكون الحركات الصوفية والاصلاحية أساس التفكير والبحث والدراسة

---

(١) محمد البهى : المسلمون فى نيجيريا ، مقال فى مجلة منبر الاسلام العدد الخامس السنة ١٩ « أكتوبر ونوفمبر ١٩٦١ » ص ٥٩ .
(٢) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ص ٦٥ .
(٣) عبد الله عبد الرازق ابراهيم : مرجع سابق ص ٣١٩ .

فى هذه الدول وقفت هذه الحضارة سدا منيعا امام التيار الأوربى الجارف الذى لم يستطع القضاء على تلك المجتمعات التى ظلت تحافظ على صفاتها الاسلامية حتى يومنا هذا .

ثالثــا : حاولت الطرق الاصلاحية فى غرب أفريقيا تجــديد العقيدة ومحاربة البدع والعادات الضارة التى شاعت بين الناس كما كانت تهدف الى إصلاح التعليم والملاءمة بين الشريعة الاسلامية وبين الفكر الحديث(١).

رابعــا : ساعدت هذه الحركات على استقرار البــدو مع الفولانى فى مدن مستقرة وكانت هذه السياسة الدفاعية التى استمدها الخلفــاء من تاريخ الفتوحات الاسلامية فى فارس وسوريا وشمال أفريقيا ، وأسس الخلفاء هذه المدن المحصنة لتكون مركزا لتجميع الجيوش ولاغلاق الحدود فى المناطق التى تتواجد فيها الاخطار وقــد ساعد العلماء والخلفــاء على الاستقرار حول هذه المدن وعلموهم الزراعة وفتحوا لهم المدارس لتعليم أطفــــالهم (٢) .

خامسا : ســـاعدت هــذه الحركات التجديدية والاصــلاحية على استقرار الأمور فى تلــك المناطق من غــرب أفريقيــا ، ولقد واكب هــذا الاستقرار ازدهار اقتصادى فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة ،فظهرت فى المدن الكبرى من هذه الدول أسواق عامرة عمت شهرتها الآفاق وقصد اليها التجار من كل صوب وعادت طرق التجارة لهذه المنطقة الى ماضيها التليد وصارت مدن كانو وتوات ، وجاو ، وتمبكت وحمــد الله وســيجو وغدامس مراكز للتجارة بين شمال أفريقيا وغربها ، ومع ازدهار التجـــارة انتعشت الصناعة حيث اقبل الناس على الانتاج ومضاعفته ، وتوفرت المواد الخام وتدفقت رؤوس الأموال على الأسواق وقامت صناعات بلغت مكانة عالية فى مجتمعات غرب أفريقيا ، وتحسنت طرق الانتـــاج واحس النـــاس بالاستقرار والطمأنينة بعد أن لإحظوا الأمان والسكينة اثر قيـــام الحركات الاصلاحية . ورغم تعرض المنطقة بأسرها لموجات الاستعمار الأوربى التى اجتاحت القـــارة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر فان هـــذه النظم الاسلامية التى وضعها زعماء المسلمين والعرب ظلت باقية حتى يومنا هذا .

---

(١) شوقى عطا الله الجمــل : الحضارة الاسلامية العربية فى غــرب أفريقيا ، مجلة المناهل ، العدد السابع ١٩٦٧ ص ١٥١ .

(2) Last, M : an aspst of the caliph moh. bello,s social policy kano studies, 2, July 1966, P. 54 .